

الجيل الجديد من المستشرقين البريطانيين:

أ.د. جون ف. هيلي نموذجاً

The New Generation of British Orientalists: Prof.

John F.

Healey as an Example

الدكتور / حمد محمد بن صراي *

مع تغيّر الأوضاع السياسية في العصر الحديث، وزوال الاستعمار بمظهره القديم، ومع تنوع التواصل بين العالم العربي والغرب ظهر جيل جديد من العلماء الغربيين له نظرة ربما تكون مختلفة نوعاً ما عن جيل القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. واتضح ذلك في كتابات ومؤلفات هؤلاء العلماء.

وهذا البحث يتناول سيرة وحياة ورحلات وجولات أ.د. جون هيلي أستاذ اللغات السامية وتاريخ الشرق الأدنى القديم في قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة مانشستر بالملكة المتحدة. وقد كتب أ.د. هيلي عدداً من البحوث والكتب والدراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم واللغات السامية، وعلاقات شعوب المنطقة مع بعضهم البعض وعلاقاتهم مع الأمم المجاورة. ودرس هيلي النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية لبلاد الشرق منذ الألف الثالث قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي. وركّز في دراساته على الأوجاريتين والأنباط والتدمريين وعلى تاريخ فلسطين القديم وشعوب فلسطين من الكنعانيين والفينيقيين. ونظراً لمعرفة هيلي بعدد كبير من اللغات السامية كالتدمرية والنبطية والسريانية والعبرية وغيرها جعلت معارفه عن المنطقة متسعة ومتشعبة.

وقد ثبت أ.د. هيلي أفكاره ونظراته حول تاريخ المنطقة في مؤلفاته المتعددة، وستحدث في هذه الدراسة عن بعض هذه المؤلفات كأمثلة لنثبت أن أ.د. هيلي له نظرة مختلفة عن عدد من سابقه وبالذات فيما يتعلق بتعاطفه مع تاريخ المنطقة وإثبات ذلك من خلال النقوش والآثار. ومحاولاته في إبراز الحقائق الدالة على عروبة المنطقة وشعوبها ولغاتهم.

* قسم التاريخ — كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية — جامعة الإمارات — الإمارات.

“The New Generation of British Orientalists: Prof. John F.
Healey as an Example”

Many things have changed in modern times, the old colonialism has disappeared, and the connections between the Arab world and the West are evident in several ways. In this time a new generation of western scholars has appeared, especially in dealing with Arabic and Islamic subjects, and they have a different point of view from those of the 18th and 19th centuries.

This paper deals with the life, professional biography and travels of Prof. John F. Healey, professor of Semitic languages and ancient history of the Near East in the Department of Middle Eastern Studies at the University of Manchester.

He has written many books, articles and studies on the Semitic languages and the ancient history of the Near East, and the relations of the people of the Near East with other nations. He also studied the political, social and commercial and religious aspects of the ancient Near East in the period from the 3rd millennium B.C. to the 7th century A.D.

Prof. Healey has concentrated his studies on Ugarit, the Nabateans, the Palmyrenes and the ancient history of Palestine and its peoples, such as the Canaanites and Phoenicians. Because he knows several Semitic languages, such as Nabatean, Palmyrene, Hebrew, Syriac and others, his knowledge of the area has become profound and extensive.

He expresses his opinions and views in many of his writings. However, this study deals only with selected writings as examples. We find from these studies his attempts to show the real Arabism of the area and its peoples and languages.

تمهيد:

تطرق عدد كبير من العلماء والباحثين لظاهرة الاستشراق، ووضعوا في ذلك العدد الجُم من الكتب والمؤلفات التي ناقشت وأيدت وعارضت آراء وأفكار المستشرقين. وسبرت أغوار النفوس وتحدثت عن أهداف الاستشراق ومراميه الخفية. كما عرّفت الاستشراق لغة واصطلاحاً، وعُرف الاستشراق بأنه تيار فكري وعلمي كبير تمثل في كم كبير من العلماء والمتخصصين الغربيين درسوا حضارة الشرق وأدبانه وآدابه ولغاته وثقافته وعلومه وعقائده وتاريخ شعوبه وإسهاماتهم في الحضارة الإنسانية. وميدان الاستشراق ميدان واسع جداً يشمل علوماً متعددة ومعارف متنوعة. وقد علم هؤلاء المستشرقون لغات الشرق ومن ضمنها بطبيعة الحال اللغة العربية.

فمن آيد هذه الظاهرة رأى فيها بزوغاً علمياً واندفاعاً نحو فهم واستيعاب الشرق بكل ما فيه من فكر ومدنية وحضارة. ورأوا أن هؤلاء المستشرقين قدّموا خدمة جليلة للحضارة العربية الإسلامية. ودرسوها بعناية وتحصيل فأنّج ذلك عدداً زاخراً من المؤلفات والكتب والمخطوطات والبحوث والدراسات في التاريخ والعقيدة والتفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه والتراجم والأدب والفن إلى غير ذلك. بل أن البعض لما ترجم كتب المستشرقين للغة العربية ترجمها كما هي دون الإشارة، ولو في الهامش، إلى أيّ من الأخطاء والتعديلات الواردة فيها إما موافقة لما يذكر وإما موضوعية وأمانة علمية. واعتبر البعض جهود المستشرقين ملمحاً من ملامح الحوار بين الحضارات.

ومن اختلف معهم رأى في المستشرقين أذناً للاحتلال والقوى المعادية للإسلام، تمهد للأعداء وتقدّم لهم خدمات جليلة للمحتل الأجنبي الفرنسي والبريطاني بالذات. ولا يرى هؤلاء المختلفون مع المستشرقين في المستشرقين سوى جواسيس وأن كتبهم ودراساتهم تحمل في طياتها السم وبين سطورها انحرافاً فكرياً وبين أهدافها نشرًا للنصرانية وطعنًا في الإسلام. ورأوا أيضاً أن ما قام به الغربيون من بحث في تاريخ الشرق قبل الإسلام ما هو إلا مجرد إحياء للوثنية في المنطقة وإبراز لدور

المشركين في الحضارة وإضعاف لدور الإسلام في تغيير المجتمع العربي ونقله نقلة نوعية جبارة. بل رأى هؤلاء المخالفون أن ما حققه المستشرقون من مخطوطات عربية إسلامية ما هو إلا مجرد انتقاء وتخيّر وأنهم ركّزوا على كتب الأدب المليئة بالقصص والحكايات والأساطير التي تسيء إلى الإسلام وأهله أكثر مما تخدم العلم. كما أن هؤلاء المنتقدين رأوا أن أغلب المستشرقين لما كتبوا في التاريخ الإسلامي والسيرة النبوية والحضارة الإسلامية لم يتجردوا عن عواطفهم وبيئاتهم ونزاعاتهم وانتماءاتهم الفكرية والعقدية. ومن نقد هؤلاء المستشرقين أدرج ضمن قائمة المدافعين عن الإسلام والعروبة وعن الثقافة والحضارة.

ووقفت فئة من الباحثين وقفة تمحيص ودراسة لما كتبه المستشرقون. ولم ترم هذه الفئة كل ما خلفه المستشرقون بل تناولته بالدراسة المنهجية الموضوعية فما كان من خير يتوه وأشاروا إليه وأشادوا به. وما كان من سوء وضحوه وذكره وناقشوه بالحكمة والروية والبرهان ومقارنة الحجة بالحجة. ورأوا في بعض ما كتبهم المستشرقون ملامح جيدة وأفكارا تستحق التفكير بها والأخذ بها أحيانا. واتفقت هذه الفئة مع الفئة الأولى على أن المستشرقين قد اتبعوا في كثير من الأحيان المنهج العلمي في البحث والدراسة، مع معرفتهم باللغات السامية، واللغات الأخرى. وكان لهم مع ذلك سعة في الاطلاع وحرص ودأب على الوصول إلى المعلومة مهما تكبدوا من المشاق. ورأت هذه الفئة أيضا أن جهود المستشرقين في إخراج التراث العربي الإسلامي وتحقيقه ميزة تحسب لهم إذ بفضل هذه الجهود انتشر تحقيق المخطوطات وشاعت طباعتها. واعترف هؤلاء أيضا بجهود المستشرقين في ترجمة المصادر العربية الإسلامية إلى اللغات الأوروبية مما أتاح للغربيين الاطلاع على التراث الإسلامي. واعترفت هذه الفئة أن من المستشرقين من أنصف الإسلام والحضارة الإسلامية وقدم خدمات جليلة للعلم والبحث والدراسة. وفي الوقت نفسه فإن كثيرين من أصحاب هذا الرأي مقرّون أيضا أن لعدد من المستشرقين دوافع سيئة وغايات قبيحة تنطلق من منطلقات نفسية مشحونة بالحق والافتراء. ولهم أفكار غريبة وتفسيرات عجيبة لا تتفق مع المنطق الصحيح والواقع التاريخي. وعلى الرغم من هذه الاختلافات إلا أن كثيرين مقرّون أنه ظهرت ضمن المستشرقين أعلام في اللغة العربية والأدب العربي والتاريخ الإسلامي والآثار والنصوص القديمة وتحقيق المخطوطات والتاريخ القديم لبلاد الشرق الأدنى ولغاته ودياناته.

أيضا وأمام هذا التباين في المواقف من الاستشراق تبأنت كذلك منطلقات المستشرقين أنفسهم من جيل إلى جيل لذا نجد فروقات بين أجيال المستشرقين منذ القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين. وهذه الفروقات تتضح فيما تناوله الغربيون وما درسوه من تاريخ وحضارة الأمة منذ فجر التاريخ حتى نهاية العصور الوسطى وبداية العصر الحديث^١.

وفي نظري ربما تعود أسباب التباين بين أجيال المستشرقين إلى عدة أمور، أهمها:

- (١) اختلاف النظرة الاستعمارية والتوجه الاستعماري لدى الدول الكبرى وكيفية تعاملها مع المنطقة ومدى حاجتها للدعم الفكري والثقافي لتثبيت مشاريعها في بلاد الشرق.
- (٢) توسع المعارف لدى العلماء الغربيين أنفسهم إذ تمكنوا من التواصل ببلاد الشرق وأصبح هذا التواصل أكثر قربا وأقوى وشيجة مع مرور الأزمان. وزيادة التواصل مع العالم العربي ساهم في التبادل الثقافي بين الشرق والغرب. كما أن الهجرة إلى بلاد الغرب واقتراب المهاجرين من أصحاب البلاد الغربيين أشاع نوعا من التفاهم والتعارف بين الثقافتين.
- (٣) ضعف النظرة العنصرية لدى الكثيرين من الغربيين ونظرهم العدائية للشرق وللإسلام وحضارته وثقافته.

- (٤) بروز نوع من الاحترام والتقدير لحضارة الشرق. وهذا بدأ بالتدرج مع مرور الوقت.
- (٥) تعير موازين القوى لدى الدول العظمى إذ تأخرت دول كبريطانيا وفرنسا وبرزت قوى جديدة ذات مشاريع جديدة كالولايات المتحدة. وهذا جعل عددا من المستشرقين البريطانيين والفرنسيين المحدثين يختلفون عن سابقيهم أيام العظمة البريطانية والفرنسية وأثناء قوة هاتين الإمبراطوريتين.

- (٦) تقلص أو زوال الصلة، إن كانت موجودة، بين مراكز البحوث والدراسات والعلوم في الجامعات الأوروبية وبالذات بريطاني وفرنسا وبين أوكار التجسس في هاتين الدولتين. وأصبحت في الغالب هذه المراكز تقدم العلم لذاته وتخدم طلبية العلم القادمين من بلاد الشرق للعلم لا غيره.

- (٧) قيام عدد كبير من أبناء الشرق بالبحث في تاريخه ولغته وحضارته والدراسة في جامعات غربية وبالذات في بريطانيا وفرنسا وألمانيا. وحدث بالتالي نوع من الاختلاط بالعلماء الغربيين. وقيام هؤلاء الطلبة بتثبيت وجهات نظرهم في رسائلهم وأطروحاتهم على الرغم من مخالفتها أحيانا لوجهات نظر أساتذتهم ومشرفيهم. وهذا وكّد شيء من النقاش وتبادل الأفكار والحوار المعتمد غالبا

على الفكر لا على غيره. وفي الوقت نفسه ساهم في تغيير أو تعديل أو تطوير الأساتذة والمشرّفين لكثير من أفكارهم.

(٨) قيام كثير من العلماء الغربيين بزيارة بلاد الشرق والتعرّف على لغته وثقافته عن قرب وعن كتب بل أن بعضهم اختلط بالسكان فحدث تغيير نوعي في الفكر والتوجّه.

(٩) انتقل عدد كبير من العلماء الغربيين إلى الدراسة الميدانية للمجتمعات الشرقية ولم يقفوا عند الحدود النظرية في البحث العلمي كما كان في السابق. وهذا الانتقال أكسبهم خبرة ودراية بالمنطقة وفهما لواقعها الاجتماعي والنفسي والسياسي.

(١٠) عقد ندوات ومؤتمرات علمية وتاريخية وآثارية وحلقات نقاش في أوروبا وبالذات في بريطانيا وفرنسا وألمانيا ساعد في اختلاط العلماء والمتخصصين الغربيين بأمثالهم الشرقيين وحدث نوع من التفاهم بين الاثنين.

(١١) تتابع بعثات الاستكشاف الآثاري في العالم العربي وظهور النصوص القديمة وبروز المدن الآثارية جعلت العلماء الغربيين يقفون معجبين بحضارة الشرق منذ فجر تاريخه إلى العصر الحديث. وتأكدت لديهم أن الحضارة في الشرق متوارثة وليست فجائية أو عرضية أو هامشية.

(١٢) قيام بعثات التنقيب الأجنبي بالبحث والتنقيب تحت إشراف إدارات الآثار في الوطن العربي والإسلامي مما أوجد نوعاً من الرقابة على ما ينشر ويكتب ويترجم خاصة أن هذه البعثات بحاجة للعودة إلى هذه الأماكن لمواصلة البحث والتنقيب.

(١٣) ظهور نوع من الوعي لدى المجتمع العربي فنبغ فيه علماء معاصرون من العرب والمسلمين درسوا في الغرب وفي جامعاته ومعاهده وأنشؤوا بحوثاً مشتركة مع علماء غربيين في الحضارة والثقافة الشرقية مما خفف من حدة التوتر عند الغربيين.

(١٤) ظهور مراكز ومعاهد وجامعات علمية وبحثية عربية وإسلامية لها دوريات ومجلات علمية تبحث في تاريخ وحضارة وآثار المنطقة وأصبح من الصعوبة أن يدسّ أحد أخطاءً وأفكاراً مسمومة إلا إذا كانت بطرق خفية.

ومع هذه العوامل إلا أنه يوجد بعض الحاقدين والعنصريين من الغربيين يتناولون على الشرق تاريخاً ولغة وديانة وحضارة من منطلقات عنصرية فحسب. ولكن بسبب هذه العوامل تغيّرت أفكار كثير من الغربيين والمستعربين تجاه الشرق ولم يعد البريطانيون منهم كما كانوا أيام

العظيمة الإمبراطورية البريطانية إذ أصبحت المملكة المتحدة أكثر انكماشاً وأقل حظوة في العالم مما كانت عليه. كما أنه نشأ جيل من العلماء البريطانيين عاشوا في بلاد الشرق وترعرعوا فيها وأحبوا أهلها وتكلموا لغتهم وتقرّبوا منهم. ومن ضمن هذا الجيل وُجد أفراد من العلماء البريطانيين ينتمون أصلاً إلى أقليات عرقية غير الجنس الإنجليزي بل وقع على بعضهم كثير من الظلم الذي وقع على الشرقيين أثناء السيطرة الإمبراطورية البريطانية مثل الأيرلنديين والويلزيين وغيرهم. ولذلك تغيّرت وجهة نظرهم تجاه الشرق وأهله وحضارته وتاريخه ولم تعد لديهم تلك النظرة الاستعمارية القديمة التي كانت عند بعض أسلافهم من الإنجليز.

وعلى الرغم من حدوث العديد من التغيّرات في العالم إلا أن ظاهرة الاستشراق لم تزال تعمل ولما تنته، وهي ظاهرة متواصلة ومتسعة ولها فروع كثيرة متشعبة، نظراً لازدياد أهمية الشرق في الظروف السياسية والعسكرية والدينية والاقتصادية الحديثة والمعاصرة. وظهرت أجيال من المستعربين والمستشرقين ليسوا فقط من فئة العلماء المتخصصين بل من الصحفيين والسياسيين والرحالة وغيرهم.^٢

وعلى الرغم من اهتمام المسلمين بالفكر الاستشراقي بصورة عامة، وبالذات فيما يتعلق بالإسلام كعقيدة وتاريخ ونبوة إلا أنهم لم يتوسّعوا كثيراً في دراسة الإنتاج الاستشراقي المتخصص في الشرق قبل الإسلام تاريخاً وآثاراً ولغات وشعوباً. وربما يعود سبب ذلك أن العلماء المسلمين المحدثين لم يجدوا فيما كتبه ودرسه المستشرقون عن تلك الفترة ما يسيء إلى الشرق أو أنهم اعتقدوا أن هذا الإنتاج لا يمسّ العقيدة الإسلامية أو أنه لا يتعلّق بثوابت الإسلام وركائزه.^٣ وفي اعتقادي أن ما قام به العلماء الغربيون من آثاريين ولغويين ومؤرخين في ميدان الشرق الأدنى القديم هو جهد عظيم، يشكرون عليه ولولاهم لربما بقيت الآثار العظيمة مطمورة تحت الرمال والأتربة وأكوام الطين بغضّ النظر عن نوايا بعضهم في نبش الماضي وآثاره السابقة للإسلام.

وهذا البحث يركّز على هذا الموضوع المهم في اعتقادي، ويقدم دراسة عن أحد العلماء الغربيين المناضلين في سبيل العلم، والذي نشأ في فترة ازدهرت فيها الدراسات الشرقية بكل فروعها، وبزغ فيها علماء كبار. وأستاذنا الجليل نشأ في فترة ربما انفكّ فيها الاستشراق عن مراكز التجسّس الغربية وعن مراكز صنع السياسة الأوربية في نظر من يرى وجود صلة ما بين الاستشراق وتلك القوى المحتلة. ويهدف هذا البحث إلى عدة أمور، هي:

١- تقديم صورة جديدة للعلماء الغربيين المعاصرين المتصلين بالشرق وحضارته قبل الإسلام.
٢- أن ما قدّمه العلماء الغربيون من إنتاج علمي، نظري ومادي لفترة ما قبل الإسلام يعدّ ركيزة مهمة من ركائز البحث العلمي والتاريخي والآثاري لدارسي بلاد الشرق الأدنى. والمشكلة أن كثيرا ممن كتب عن الاستشراق لم يتحدث عن دور المستشرقين في النقيب عن الآثار وقراءة النصوص القديمة والتاريخ القديم لبلاد الشرق الأدنى. وربما أن كثيرا ممن عمل من المستشرقين في هذا الميدان لم يتطرق للتاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والسيرة النبوية وركزوا جهودهم على الآثار والنقوش والتاريخ القديم والحضارات القديمة.

وأتى العديد منهم كرحالة وبعضهم أتى مع فرق التنقيب الآثارية التي قامت بالمسح الآثاري في البلاد العربية وتركيا وإيران واكتشفت عددا كبيرا من المدن والمستوطنات والطرق التجارية وممرات الأنهار القديمة. وسجلوا ما عثروا عليه من نقوش ورقم طينية ومعاجم وأختام وقوانين، وترجموا كل ذلك وقدّموه للباحثين والدارسين لدرجة أنه في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانوا هم وحدهم في الساحة العلمية الآثارية لا ينافسهم أحد. وفي القرن العشرين أصبح ما كتبوه وخلفوه مصدرا رئيسا لكل من أتى بعدهم. وأصبح الفضل يعود لهم في اكتشاف المدن التاريخية والآثارية في بلاد الشرق. كما كان لهم الفضل الكبير في فك رموز اللغات القديمة. ولا يزال دور البعثات الأجنبية يتزايد مع مرور الوقت وإن ظهر بعد ذلك علماء متخصصون من العرب والأتراك والإيرانيين.^٤

وللمستشرقين جهد مشكور في تدوين التاريخ القديم وبالذات تاريخ العرب قبل الإسلام. وكتبوه بأسلوب حديث يعتمد على المقابلات والزيارات الميدانية ونقد الروايات. واستفادوا مما جاء عن العرب وغيرهم في التوراة والمصادر اليهودية والنصرانية والكلاسيكية ومن الكتابات الآشورية والبابلية وغيرها. كما عملوا على تسجيل وكتابة النقوش والمخبرشات والرسومات التي عثروا عليها في شبه الجزيرة العربية وبلاد الشرق الأدنى.^٥ وكان للمستشرقين فضل كبير في إنشاء المتاحف لحفظ تراث وآثار الشرق الأدنى وحمايته وجعله في متناول الباحثين والجمهور. ومن هذه المتاحف المتحف المصري الذي أشرف على إنشائه علماء فرنسيون، كما أنشئوا المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة.^٦ وكثير من هؤلاء العلماء أحبوا المنطقة العربية وآثارها وحضارتها القديمة، وأنصفوا في أطروحاتهم ورؤاهم.^٧ وهذا لا يعني أنهم مبرؤون من الأخطاء والتفسيرات الخاطئة لتلك

الفترة.^٨ إذ أن بعضهم اعتبر التاريخ القديم والآثار مدخلا لانتقاد الإسلام وحضارته والتقليل من عظمتها.^٩ وبعضهم اعتبره مدخلا لنشيت الادعاء الصهيوني في الأرض المقدسة.^{١٠} وبعضهم درس حضارة الشرق من خلال علاقتها بالعهد القديم.^{١١}

٣- تبيان انتماء جون هيلي في نشأته وتكوينه وبداية بروزه إلى مدرسة الاستشراق البريطاني الذي يعدّ أوسع المدارس الاستشراقية في أوروبا إذ اتصلت بريطانيا منذ البداية مع الشرقين الأدنى والأقصى اتصالا سياسيا وعسكريا واقتصاديا وثقافيا. وتناول الاستشراق البريطاني سائر نواحي المعرفة الشرقية من لغات وآداب وتاريخ وآثار وجغرافيا. وتميّز بالاهتمام باللغة العربية وبقية اللغات السامية الأخرى. وقد ازدهرت في المملكة المتحدة مراكز ومعاهد الاستشراق في عدد من الجامعات البريطانية مثل أكسفورد وكمبردج ومانشستر ودرهام وبيرمنجهام وإدنبره وجلاسجو وكاردف ولندن. وبرزت في المملكة المتحدة أعداد من المجلات العلمية المتخصصة في العلوم الشرقية من أمثال المجلة الملكية الآسيوية ومجلة الدراسات الشرقية والأفريقية ومجلة الدراسات السامية وغيرها كثير. وأصبحت بريطانيا بمثل هذه الجامعات والمعاهد والمجلات ملاذا للدارسين والباحثين لذا برز العديد من العلماء في تخصصات مختلفة ولكنها تركز جغرافيا على مصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق وتركيا وإيران وشبه القارة الهندية. وتميّز المستشرقون البريطانيون بسعة الاطلاع واستمرار التواصل مع الشرق والقيام بالرحلات المتعددة في المنطقة. كما احتوت بريطانيا عددا كبيرا من المتاحف التي تضم تراث وآثار الشرق إضافة إلى العديد من المكتبات التي تحتوي مئات المخطوطات.^{١٢}

٤- توضيح المراحل التي تقلّب فيها أ.د. هيلي عبر حياته، وكيف تطورت به الأحوال إلى أن أصبح عالما متخصصا في الشرق الأدنى القديم. وما مرّ به من مراحل علمية وتجارب شخصية تجعله بعيدا كل البعد عن الاتهامات السابقة للمستشرقين.

٥- دراسة الإنتاج العلمي والفكري لجون هيلي وكيف تعامل مع الشرق، وكيف قدّم حضارته وعرضها.

ومن الجدير بالذكر أن حديثي عن أ.د. جون هيلي ليس من قبيل التأثير والتأثر بين الأستاذ والتلميذ وإن كنت أقرّ بفضل أستاذي وعلميته وعلو شأنه في ميدان التخصص.^{١٣} ولكن هذا الحديث يندرج تحت تقويم ودراسة أحد أعلام المستشرقين المعاصرين، وإنتاجه العلمي.

السيرة الذاتية للأستاذ الدكتور جون هيلي:

تحفل السيرة الذاتية لهيلي بكثير من الإنجازات العلمية والشخصية والإدارية، وتتميز بالعطاء المستمر على كافة المستويات، وفي أمور الحياة المختلفة وفي كافة مراحل حياته. واعتمدت كثيرا في هذا الموضوع على ما كتبه هيلي عن نفسه، وعلى معلومات شخصية عن المذكور نتيجة للعلاقة الخاصة التي تربط بيننا منذ عام ١٩٨٨ وإلى الآن.

الأصل والأسرة والميلاد:

ينتمي هيلي إلى أسرة ذات أصل أيرلندي، كاثوليكي، وُلد في مدينة ليدز (Leeds) ببريطانيا في ١٠ فبراير ١٩٤٨. وهو من عائلة متواضعة من الطبقة العاملة، ولا يوجد أحد من أفراد هذه العائلة تلقى تعليما جامعا. كان والده عاملا في مصنع للملابس، كما شارك كجندي في الحرب العالمية الثانية، ووصل بسببها إلى أوروبا. ومع ذلك لم يتلقَ تعليما جامعا وكانت قدراته العلمية محدودة ولا تعدو القراءة والكتابة. ولكنه يعي أهمية التواصل الحضاري والعلاقات الإنسانية مع الآخرين. وقام هذا الوالد بمرافقة ابنه الصغير جون في زيارات إلى فرنسا وألمانيا وهولندا. حفرت هذه الزيارات في ذاكرة ابنه ذكريات طيبة لا تنسى. وكانت خلفية أسرته المحافظة أثر في تشكيل شخصيته المتدبنة المحبة لتطبيق شعائر الديانة النصرانية.

وعلى الرغم من الثقافة اليسيرة لهذا الوالد إلا أنه كان حريصا على أن يتعلم ولده الوحيد، ويحصل على تعليم راقٍ يعوّض ما فقدّه الأب في صباه. ولذلك كان مستعدّا أن يضحي في سبيل ذلك، ويقدم ما يستطيع من أجل ابنه، ومن أجل أن يتعلم في أرقى المدارس في ليدز. وتحقق أمل الأب عندما حصل جون على منحة دراسية، فمنح ولده كل دعم معنوي عوّضه عن فقدان الدعم المادي.

تزوج هيلي من امرأة متخصصة في الآثار، هي إليزابيث، وأنجب منها ولدا هو كيفن وبتا

هي فرانسيس.

النشأة والتعليم:

ونظرا للخلفية الأيرلندية الكاثوليكية للأسرة فإن جون في عام ١٩٥٩ ذهب للدراسة في مدرسة يشرف عليها الرهبان اليسوعيون الكاثوليك تسمى مدرسة القديس مايكل. وتعتبر هذه التجربة العلمية الأولى أفضل تجاربه العلمية في حياته والتي تعلّم فيها جيّدا. وأنهى دراسته في هذه

المدرسة وهو يجيد اللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والألمانية. وكان المفترض أن يتخرج من هذه المدرسة ويلتحق بسلك الرهبان، ولذلك اتجه بعدها إلى الكلية اللاهوتية في دبلن في عام ١٩٦٦. وفي عام ١٩٦٧ ذهب للدراسة في المرحلة الجامعية في الكلية الجامعية الوطنية بدبلن. وكان متوجها لدراسة الفلسفة والتي يحبها كثيرا. وأثناء وجوده في الكلية نصحه اثنان من معلميه الرهبان بأن يتعلم اللغة العبرية ليتمكن من قراءة العهد القديم في لغته الأصلية وبالتالي اتجه لقسم اللغات السامية في الكلية الجامعية. وبعد سنة من دراسة اللغة العبرية قرر التحول من دراسة الفلسفة إلى دراسة اللغات التوراتية وهي العبرية والآرامية واليونانية، وتخرج من هذا القسم في عام ١٩٧٠. وحصل على شهادة البكالوريوس في اللغات السامية واليونانية الهلنستية.

ولقد كانت دراسته الجامعية متميزة من حيث حصوله على الدرجات العالية في النتيجة النهائية إضافة إلى معرفته الكبيرة بعدد من اللغات السامية كما استفاد من ثلاثة من أساتذته الذين أثروا كثيرا على شخصيته العلمية. أشهرهم أ.د. ديرموت رايان (Dermot Ryan) الذين يعتبر أحد العلماء الأيرلنديين المتميزين والذي أصبح بعد ذلك رئيسا لأساقفة دبلن. وقد تعلم رايان اللغة الأوجاريتية في روما في بدايات الخمسينات من القرن العشرين. وهو الذي شجع جون على توسيع مداركه المعرفية في اللغات السامية في خارج النطاق الجغرافي للعهد القديم. وتوجه جون في عام ١٩٧١ إلى جامعة كيمبردج للدراسة مع أ.د. جون إيمرتون (John Emerton) أحد كبار المتخصصين في الدراسات العبرية واللغة الأوجاريتية في جيله.

التوجه الأكاديمي والنظرة العلمية:

في أثناء وجوده في كيمبردج قرّر جون قرارا مهما وهو التخلي عن التوجه الديني البحت الذي يوجهه نحو التخرج ليكونا قسيسا في المستقبل إلى الميدان الأكاديمي البحت. وفي كيمبردج أيضا بدأ بتعلم اللغة العبرية، وبدأت نظراته حول الثقافة العبرية والإسلام والسياسة في الشرق الأوسط في العصر الحديث تتغير. وهو في هذه المرحلة لم يقم أبدا بزيارة إلى أي من بلاد الشرق الأوسط لأنه لم يكن يمتلك المال الكافي للقيام بذلك.

بعدها حصل على الماجستير في عام ١٩٧٢ ذهب إلى مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية (The School of Oriental & African Studies) في جامعة لندن ليدرس الدكتوراه في تخصص الديانة والآداب الأوجاريتية. ومن حسن حظه أن أستاذه ومشرفه كان

العالم المتميز في الدراسات الآشورية، أ.د. دونالد ويسمان (Donald Wiseman). وفي الوقت نفسه تعلم على يدي أحد العلماء الكبار في الدراسات الآثيوبية على مستوى العالم، وهو أ.د. إدوارد أوليدورف (Edward Ullendorf). وبدأ جون في لندن كلك دراسة اللغة الأكاديمية للاستفادة منها في تعلمه في دراساته للغة الأوجاريتية. وكان وجوده في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية فرصة كبيرة مهمة للتعرف على ثقافة الشرق الأوسط والثقافة العربية نظرا لما تتمتع به الكلية من اختلاط ثقافي وتمازج عرقي واختلاف فكري مما ساهم ذلك في تقربه للعرب ولغة وفهما ومعرفة بطريقة صحيحة.

وفي هذه الفترة بدأت توجهات جون الأكاديمية تتغير، وبالذات دراسات التاريخ القديم للشرق الأدنى بدلا من المواصلة في مجال التخصص في العلوم التوراتية وعلوم العهد القديم. ونظرا لحاجته إلى المال اضطر للتحويل من الدراسة الدائمة في الكلية إلى الدراسة الجزئية. واضطر إلى العمل لكسب المال وتوجه لجامعة بيرمنجهام ليحاضر هناك في طلبة الدراسات العليا، في اللغة العبرية والعهد القديم بقسم اللاهوت، وبقي في جامعة بيرمنجهام مدة سنة. ولكنها مدة كافية للالتقاء بعدد من العلماء من أمثال عالم الآشوريات الكبير أ.د. ويلفريد لامبيرت (Wilfred Lambert). وقبل نهاية هذه السنة أيضا حصل على منحة دراسية من الكلية الجامعية بكاردف. واتجه إلى كاردف في عام ١٩٧٤ وكان ذلك من أكبر الفرص العلمية في حياته إذ أصبح تحت إشراف أ.د. هاري ساجس (Prof. Harry Saggs)، وهو أحد العلماء المحبين للعراق وحضارته، وحيث قضى فيه سنوات عديدة يدرّس في جامعتي بغداد والموصل. وكان لهذا العالم أكبر الأثر في شخصية جون، وتلقى الكثير من عطف هذا العالم وتشجيعه حتى حصل على الدكتوراه في عام ١٩٧٧.

ولما قام هيلي بزيارة علمية لمدانن صالح (الحجر) بالملكة العربية السعودية في عام ١٩٨٥ شاهد آثار الأنباط في الموقع فبدأ يوجه اهتمامه نحو تاريخ الأنباط وآثارهم ولغتهم وفي الوقت نفسه قلّ اهتمامه بالدراسات الأوجاريتية. ولما أصبح أستاذا في قسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة مانشستر تطوّرت معارف هيلي وتواصله مع العرب وغيرهم إذ كان القسم يزخر بالطلبة المسلمين واليهود فكانت بالنسبة له تجربة جديدة أيضا.

ومما ساعد على تنمية علاقات هيلي بالشرق زوجته إليزابيث العاملة الآثارية التي شاركت زوجها في زيارته للبحرين وسوريا واليمن والأردن. إضافة إلى عملها في التنقيب عن الآثار في تركيا في كل صيف من كل عام.

الوظائف الإدارية والمهام الأكاديمية والتدريسية:

بقي جون هيلي في كاردف يعلم في قسم اللغات السامية والدراسات الدينية بالكلية الجامعية بين عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٠ ثم انتقل إلى جامعة درهام التي كانت تضم مدرسة الدراسات الشرقية. وفي درهام تعرّف على أحد أعز أصدقائه، وهو أ.د. ريكس سميث (Prof. Rex Smith) الذي يعتبر أحد كبار علماء العربية والتاريخ الإسلامي والعربي. وكان على تواصل كبير مع العالم العربي وله خبرة كبيرة في هذا المجال.

وظل هيلي في درهام إلى عام ١٩٨٩ حيث انتقل إلى قسم دراسات الشرق الأوسط في جامعة مانشستر حيث ترقّى إلى درجة مساعد محاضر (Senior Lecturer) في عام ١٩٨٩ ثم إلى درجة قارئ (Reader) في عام ١٩٩٥. وفي عام ١٩٩٧ ترقّى إلى درجة أستاذ في الدراسات السامية ثم أصبح رئيساً لقسم دراسات الشرق الأوسط.

ولاهتمام هيلي بالشرق وحضارته وثقافته انتمى إلى عدد من الجمعيات العلمية المهمة بالشرق وهي الجمعية الملكية للدراسات الآسيوية (The Royal Asiatic Society)، وجمعية دراسات العهد القديم (The Society for Old Testament Study)، وجمعية آرام، والجمعية الأمريكية للبحوث الشرقية (The American Schools of Oriental Research).

هيلي والتواصل مع العالم العربي:

مما لا شك فيه أن تواصل أ.د. هيلي مع العالم العربي له أكبر الأثر في فكره ومبادئه وتعامله وأسلوب كتابته وتناوله لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى القديم.

الإشراف الأكاديمي:

وأثناء عمله في جامعة درهام بدأ إشرافه العلمي على عدد من طلبة الدراسات العليا من العرب وغيرهم. وازدادت عملية الإشراف العلمي على الطلبة لما انتقل إلى جامعة مانشستر. وبلغ عدد من أشرف عليهم هيلي إلى الآن ١٢ طالبا. وكنظرة على أشخاصهم وموضوعات دراساتهم:

- (١) عادل الجادر من العراق، أنهى دراسته في عام ١٩٨٣ وكتب حول: دراسة مقارنة لحروف ولغة الأسماء الشخصية للنقوش السريانية القديمة.
- (٢) إلياس البيطار من سوريا، أنهى دراسته في عام ١٩٨٣، وكتب حول: دراسة مقارنة للغات السامية مع التركيز على العربية والعبرية والسريانية ومقارنتها بالبناء اللغوي للنصوص الأوجاريتية.
- (٣) سليمان الذيب، حصل على الدكتوراه في عام ١٩٨٩، وكتب حول: دراسة مقارنة للنقوش الآرامية والنبطية في شمال غرب المملكة العربية السعودية.
- (٤) شيناسي جوندوز، من تركيا، أنهى دراسته في عام ١٩٩١، وكتب حول: الأصول والتاريخ القديم للطائفة المندائية وعلاقتها بالصابئة المذكورين في القرآن الكريم.
- (٥) حمد بن صراي، من الإمارات، حصل على الدكتوراه في عام ١٩٩٣، وكان عنوان أطروحته: منطقة الخليج العربي من القرن الثالث ق.م. إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين، مع التركيز على النشاطات التجارية بين تدمر وخراكس ومنطقة الخليج.
- (٦) خالد النوري، من الكويت، حصل على الدكتوراه في عام ١٩٩٤، وكان عنوان أطروحته: يام: إله البحر في النصوص الأوجاريتية.
- (٧) ساجدة عمر فوزي، من العراق، أنهت الدكتوراه في عام ١٩٩٤، وكتبت حول: ترجمة المعاني الروحية في نشيد الأنشاد في ضوء التصوف اليهودي.
- (٨) عصام الزهيري، من العراق، أنهى دراسته في عام ١٩٩٨، وكتب حول: دراسة حول الأصول الرافدية القديمة للديانة المندائية.
- (٩) هتون الفاسي، من السعودية، وحصلت على الدكتوراه في عام ٢٠٠٠، وكان عنوان الأطروحة: النساء والقوة في شمالي شبه الجزيرة العربية: بلاد الأنباط.
- (١٠) زياد السلامين، من الأردن، أنهى دراسته في عام ٢٠٠٤، وكتب في موضوع: الاقتصاد النبطي في ضوء المكتشفات الآثارية.
- (١١) فهد العتيبي، من السعودية، حصل على الدكتوراه في عام ٢٠٠٥، وكان عنوان الأطروحة: الرومان والأنباط، دراسة في الفكر الإمبراطوري الروماني.
- من هذا الاستعراض لطلبة هيلي وموضوعات دراستهم تحت إشرافه نلاحظ ما يلي:

أ- تنوعا جغرافيا لبلدان الباحثين، وهي الإمارات والكويت والسعودية والأردن والعراق وسوريا وتركيا. وهي دول لها مكانة في وحضارة الشرق الأدنى منذ القدم وإلى العصر الحاضر. وهؤلاء الطلبة يشكلون دعاية إعلامية جيدة لأستاذهم السابق. وهم يتولون مناصب إدارية وأكاديمية في بلدانهم.

ب- تنوعاً في موضوعات أطروحات الدكتوراه فهي تتوزع بين الديانة والحضارة واللغة والأدب والاقتصاد والنظرية التاريخية والآثار والسياسة. وهي بلا شك موضوعات تحمل في طياتها أفكارا ومبادئ من كتبها، وكانوا يناقشون أستاذهم فيها ويتبادلون معه الحديث حولها فيختلفون ويتفقون. وهذه الحوارات ولدت عند هيلي قناعات معينة تتصل بحضارة وثقافة ولغات وديانة الشرق الأدنى منذ عصوره الأولى إلى العصر الحديث.

ج- اتساعا جيدا في المدارك وإحاطة لا بأس بها بعصور التاريخ في بلاد الشرق الأدنى حصل عليها هيلي من إشرافه على هؤلاء الطلبة مع اعترافنا بما تميّز به هيلي من العلم. وكان هيلي يعامل طلبته تعاملًا راقيا. وأصبحت علاقته بهم علاقة صداقة بعدما أمّوا دراستهم معه.

الرحلات والزيارات والمؤتمرات:

وبطبيعة الحال فإن الحصول على الدكتوراه كان بداية للانطلاقة العلمية والتعليمية لجون، وفي الوقت نفسه تمكن من الحصول على راتب شهري مكّنه من القيام بأولى زيارته للشرق الأوسط. وبتشجيع من أستاذه ساجس حصل أيضا على منحة من المدرسة البريطانية للآثار في العراق مكّنته من زيارته للمرة الأولى حيث قضى فيه عدة شهور. وعند زيارة جون لبغداد كان يتولى مسؤولية المدرسة البريطانية للآثار أ.د. نيكولاس بوستجات (Prof. Nicholas Postgate) الذي أصبح بعد ذلك أستاذا في جامعة كيمبردج. وعندما عاد إلى بريطانيا، عاد بانطباع جديد، وأكثر تعاطفا مع العرب، واحتراما للإسلام.

لقد كانت زيارة العراق الزيارة الأولى لجون لأحد بلدان الشرق الأوسط، وكانت بالنسبة له زيارة رائعة رأى فيها أن كل شيء يختلف عما كان يظن. وفي أثناء زيارته هذه قام بأول تجربة له أيضا في عبور الحدود عن طريق البر إذ استقل حافلة من مدينة زاكو متجهة إلى تركيا. وهي بالنسبة له التجربة الأولى في ميدان الرحلات البرية. وخلال انطلاق الحافلة من العراق مرت بسوريا وبقي

فيها أسابيع بهدف السياحة وزيارة الأماكن الأثرية فيها. وكانت فرصة إذ تمكّن من زيارة موقع أوجاريت رأس الشمرأ حاليا على الساحل السوري. وأحب سوريا، وأعجبته أرضها وآثارها. وخلال تدريسه في جامعة درهام حصل على بعض المنح الدراسية والبحثة والمؤتمرية مكنته من زيارة الشرق الأوسط مرة أخرى. فسافر إلى سوريا أكثر من مرة وتركيا والأردن. وفي عام ١٩٨٥ قام بزيارة عملية للحجر (مدائن صالح) في السعودية مع أ.د. سميث. قام هيلي بعد ذلك بزيارات متكررة لمنطقة الشرق الأوسط فزار دولة الإمارات حتى الآن أربع مرات، والبحرين، وقطر، واليمن. ثم زار كلاً من سوريا والعراق وتركيا مرات أخرى. وقد وفّرت له هذه الرحلات والزيارات معرفة ممتازة بالعالم العربي.

الأصدقاء والمعارف وشبكة العلاقات الشخصية:

وتعرّف في هذه الزيارة الأولى للعراق على عدد من الأصدقاء العراقيين. وهي طبعا ليست المرة الأولى التي يلتقي فيها بالعراقيين إذ كانت مدينة كاردف مكانا مفضّلا لإقامة العراقيين بهدف الدراسة والإقامة. وكان ساجس لديه عد من الطلبة العراقيين يشرف عليهم. ومن هؤلاء الطلبة فاروق الراوي الذي قام برحلة في شمال العراق، وكان من المتخصصين في علم الآشوريات في جامعة بغداد. وقد لاحظ بوسجات كثرة عدد الأصدقاء العراقيين الذين تعرّف عليهم هيلي خلال زيارته القصيرة بينما كان غيره من الأجانب يستغرق وقتا أطول لكسب الأصدقاء في العراق. وعندما غادر العراق لم يعد إليها إلا عام ٢٠٠٠ والتقى بعدد من أصدقاء الزيارة الأولى.

ولما زار سوريا التي كانت الخطوة الثانية له في بلدان الشرق الأوسط. رأى فيه السوريون صديقا للعرب، وأعجبوا به لكونه عالم غربي أتى إليهم يدرس تاريخ بلادهم ويتعرّف على آثارها.

الإنتاج العلمي وصلته بتاريخ وحضارة ولغات الشرق الأدنى:

إن المتبع للإنتاج العلمي لجون هيلي يلاحظ أنها تتوزع حسب عدد من المجالات وسوف

نورد أمثلة منها حسب النحو التالي:

أولا: الدراسات التاريخية العامة:

١- قام أ.د. هيلي بتحرير كتاب مهم على شرف صديقه وشريكه، أ.د. ريكس سميث. ساهم في

هذا الكتاب عدد من تلاميذ ومحبي سميث من العرب والأجانب: Studies on Arabia in

honour of Professor G. Rex Smith (Journal of Semitic Studies
Suppl. ١٤) [ed. with V. Porter], Oxford, ٢٠٠٢ (٣٦٣ pp.)

٢- اشترك أيضا في تحرير كتاب يضم عددا من البحوث المتعلقة بالعهد القديم والشرق الأدنى.

وهذا الكتاب كان على شرف أ.د. كيفين كاثكارت: Biblical and Near Eastern

Essays: Studies in Honour of Kevin J. Cathcart (Journal for
the Study of the Old Testament Suppl. ٣٧٥) [ed. with C.

McCarthy], London/ New York, ٢٠٠٤ (٣٧٦ pp.).

٣- "تدمير وتجارة الخليج العربي": "Palmyra and the Arabian Gulf

Trade", Aram, ٨ (١٩٩٩), pp. ٣٣-٣٧.

ثانيا: النقوش والكتابات القديمة:

وتبلغ بحوث أ.د. هيلي في هذا المجال ستة، منها:

١- الأبجدية المبكرة: The Early Alphabet, (British Museum),

١٩٩٧، ١٩٩٣ London Rep. London (٦٤ pp.) ١٩٩٠، وقد تُرجم الكتاب

إلى الفرنسية:- Les Débuts de l'alphabet (transl. by Ch. Zivie-

Shoki Arufabetto Coche), Paris, ٢٠٠٥ (١١٥ pp.)

(transl. by Sh. Takeuchi & F. Yajima), Tokyo, ١٩٩٦ (١١٤ pp.)

٢- "أصول الأبجدية، وانتقالها إلى الغرب، وانبثاق الأبجدية العربية": "The Origins of

the Alphabet, its Transmission to the West and the Emergence
of the Arabic Script", to appear in the Proceedings of the

Milan conference on the Origins of Writing.

٣- "تطور الأبجدية": "Alphabet: Development", in Concise

Encyclopedia of Language and Religion (eds. J. F. A. Sawyer,

J. M. Y. Simpson). Oxford ٢٠٠١, pp. ١٥٤-٦١.

لقد قدّم هيلي عددا من البحوث والدراسات والكتب تبلغ ١٠ عناوين، وهي بحوث متنوعة من أهمها:

١- دراسات أولية في اللغة السريانية (First Studies in Syriac, Univ. of Birmingham, ١٩٨٠ (١٨٦ pp.)) ثم أعيد طباعته عام ١٩٨٦ ثم عام ١٩٩٤. وهو كتاب فريد من نوعه من حيث تركيزه على اللغة السريانية وقواعدها وأمثلة من نصوص باللغة السريانية وترجمتها إلى اللغة الإنجليزية. وهو كتاب مهم للمبتدئين.

٢- "ملاحظة على المخطوطات السريانية والعبرية في العراق": (A Note on Syriac and Hebrew Manuscripts in Iraq", BSOAS, ٤٣ (١٩٨٠), pp. ٥٧٨-٥٧٦).

٣- "المصادر السريانية والفترة الأموية": ((Syriac Sources and the Umayyad Period", in ٤th International Conference on the History of Bilad al-Sham during the Umayyad Period (eds. M. A. Bakhit & R. Schick), ١٩٨٩, pp. ١-١٠.

٤- "التاريخ المبكر للكتابة السريانية": (The Early History of the Syriac Script", Journal of Semitic Studies, ٤٥ (٢٠٠٠), pp. ٥٥-٦٧.

رابعا: اللغة الآرامية وآدابها:

بلغت بحوث ومؤلفات أ.د. هيلي في هذا المجال تسعة، ومن أمثلتها ما يلي:

١- "الثقافة الآرامية القديمة والعهد القديم": (Ancient Aramaic Culture and the Bible", Aram ١ (١٩٨٩), pp. ٣١-٣٧.

٢- "الفينيقيون وانتشار الآرامية": (Phoenician and the Spread of Aramaic", in Atti del I Congresso Internazionale di Studi Fenici e Punici III, ١٩٨٣, pp. ٦٦٣-٦٦٦.

٣- "Aramaic in the Gulf: towards a Corpus", Aram, ١١/١٢ (٢٠٠١), pp. ١-١٣
الدكتور حمد محمد بن صراي.

٤- "النقوش الآرامية في الشرق الأدنى في الفترة الرومانية": Aramaic Inscriptions of the Near East in the Roman Period (contracted O.U.P.
٢٠٠٥-٠٦)

خامسا: ميدان الدراسات الدينية العامة، ومن ضمنها ما يلي:

١- "الزراعة القديمة والعهد القديم مع التركيز على الإصحاح الثامن والعشرين: ٢٣-٢٩:
"Ancient Agriculture and the Old Testament (with special reference to Isaiah XXVIII ٢٣-٢٩)", Oudtestamentische Studien, ٢٣ (١٩٨٣), pp. ١٠٨-١١٩.

٢- "نحو سقوط الأصنام: ظهور التوحيد في الشرق الأدنى قبل الإسلام": Towards the Fall of Idols: Emergent Monotheism in the Pre-Islamic Near East", to appear in the Fawzi Zayadine Festschrift (ed. D. F. Graf).

سادسا: ميدان الدراسات المتعلقة بالديانة النصرانية، ومن أمثلة هذه الدراسات ما يلي:

١- اشترك في تأليف كتاب معجمي عن النصرانية الشرقية: The Blackwell Dictionary of Eastern Christianity [edited with K. Parry, et.al], Blackwell, Oxford, ١٩٩٩ (xxii + ٥٨١ pp.)

٢- "النصارى في الأرض الإسلامية": "Christians in a Muslim Land", Ur ٤ (١٩٧٩), pp. ١٨-٢٢.

٣- "نصارى قطر في القرن السابع الميلادي": "The Christians of Qatar in the ٧th Century A.D.", in Studies in Honour of C. E. Bosworth I. Hunter of the East: Arabic and Semitic Studies, (ed. I. R. Netton), Leiden ٢٠٠٠, pp. ٢٢٢-٣٧.

سابعاً: إيبلا:

هيللي بحث واحد في إيبلا بعنوان: "إيبلا: المدينة القديمة في سوريا": "Ebla: Ancient City of Syria", Expository Times, ٩١ (١٩٨٠), ٣٢٤-٣٢٨.

ثامناً: مشاركات أ.د. هيللي في تحرير دوريات علمية لها صلة بتاريخ ولغة وأدب الشرق

الأدنى:

تنوّعت مشاركات هيللي في تحرير الدوريات العلمية المتخصصة التي تتعلق ببلاد الشرق الأدنى تاريخاً ولغة مما يدل على نوعية جديدة من العلماء المتفاعلين مع المنطقة.

1 - Journal of Semitic Studies and Journal of Semitic Studies Supplements, University of Manchester/O.U.P. [member of editorial committee 1992-]

2 - Bulletin of Nabataean Studies (web-source edited from the Istituto Universitario Orientale di Napoli)

3 - Aram, Univ. of Oxford [member of Advisory Editorial Board 1989-]

4 - Aramaic Studies, Continuum [member of Editorial Board 2003-]

٥ - المجلة العربية للعلوم الإنسانية بالكويت منذ ٢٠٠٤.

آراء وأفكار ونظرات هيللي لتاريخ ولغات الشرق الأدنى من خلال بعض مؤلفاته:

تبيّن هيللي خلال مسيرته العلمية والتدريسية وتوجهه الفكري وجود تغيير فكري في منحنى الدراسات الاستشراقية. وهو يرى أنه لا توجد صلة أبداً بين التوجه الاستشراقي وبين التوجه الاحتلالي والتوسع الأوروبي في المنطقة. وفي حالته هو نرى أنه كان في البداية ينوي دراسة كل ما يتعلّق بالعهد القديم والدراسات النصرانية. ولذلك تعلّم اللغات السامية القديمة بهدف قراءة وفهم العهد القديم والعهد الجديد. ولكن هذه النية تغيّرت مع مرور الوقت وتوجه لدراسة التاريخ القديم لبلاد الشرق الأدنى بصورته الصحيحة لكونه تاريخ مهم وأحد التواريخ المشكلة لتاريخ الإنسانية على مر العصور.

وفي الوقت نفسه لا يصدق أن جون هيلي كانت تدفعه دوافع احتلالية أو أن له صلة بالمخابرات البريطانية إذ أنه ينتمي إلى أسرة أيرلندية وليس إنجليزية بل أن الأيرلنديين قد تعرضوا أنفسهم للاحتلال البريطاني مدة طويلة من الزمن. وأعلنوا ثورهم ضد هذا الاحتلال حتى نالوا استقلالهم وكانوا بالتالي أول الشعوب التي حصلت على استقلالهم من الاحتلال الإنجليزي. كما أنه ينتمي إلى الطائفة الكاثوليكية، وهي طائفة أقلية في بريطانيا ضمن النسيج الديني العام في المملكة المتحدة، فشعر جون هيلي بمعاناة الأقليات في العالم. هذه الخلفية الأيرلندية والدينية لهيلي جعلت منه يقف دائما مع الحق، ومع الشعوب المحتلة ضد المحتلين. وهذا واضح من موقفه ضد الاحتلال الصهيوني في فلسطين على الرغم من أن له العديد من الأصدقاء اليهود في بريطانيا وخارجها ولكن هذه العلاقة لم تنسهِ حق الشعب الفلسطيني في وطنه وأنه شعب واقع تحت الاحتلال. وهو يعبر بصراحة عن وجهة النظر هذه.^{١٤}

ومن قناعات هيلي الفكرية والتي غالبا ما يرددها أمام طلبته أن التقسيم بين الشرق والغرب لم يكن موجودا بهذا المعنى في العصور القديمة إذ أن الفكر الشرقي والعقائد والحضارة الشرقية تأثرت بها بلاد اليونان منذ القرنين الثامن والسابع ق.م. ثم تأثر بها الرومان بعد ذلك. وكان للحضارة الشرقية تأثير واضح على الأساطير اليونانية كما كان عدد من الأباطرة الرومان من أصول عربية أو ولدوا في بلاد الشرق الأدنى. وأصبحت اللغة اليونانية لغة أهلية في كل من سوريا والأردن ومصر.

ومن قناعاته الفكرية أيضا أنه يرى أن التاريخ القديم له تأثير كبير على التاريخ الحديث للشرق الأوسط وهي حقيقة لا يعيها الناس في أوروبا وأمريكا الشمالية. وهو يعتقد أن التراث القديم لا يزال يشكل الصورة الحديثة لكل من الأردن وسوريا والعراق. ويعتقد أن دولة إسرائيل قد قامت على فكرة تستمد أحقيتها في وجودها في الأرض المقدسة من الآثار والتاريخ القديم. وهذا الأمر يجعل من التاريخ القديم أكثر أهمية في الشرق الأوسط من أوروبا. وهو في نظره للصراع على أرض فلسطين يرى أن الفلسطينيين واليهود قد بنوا كثيرا من حجج صراعهم على التاريخ القديم والآثار وهو يعتقد أن ذلك فيه خطورة كبيرة خاصة إذا انحرفت التفسيرات وانجرت خلف الأهواء السياسية والرغبات الشخصية. مع اعتقاده الجازم أنه في فترة ازدهار بلاد الشرق الأدنى في العصور القديمة

كان أسلافه في أوربا يعيشون في الكهوف عندما كانت مصر وبلاد الرافدين تزدهر حضاريا ومدنيا.^{١٥}

وهو يرى أيضا أن دراسة الأبجدية الشرقية من أكبر الاهتمامات لدى الباحثين في تاريخ وحضارة الشرق بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية وأصولهم ودياناتهم. وهذا ما أشار إليه في كتابه: *The Early Alphabet*، ص. ٢٠٠. وفي هذا الكتاب يعبر عن رأيه بأنه يوجد فرق كبير بين اللغة والكتابة حيث أن اللغة تتكون من نظام للأصوات ولكنها غير مكتوبة. وأنه توجد شعوب كثيرة ليس لها كتابة. (ص. ٢٠١)

وفي إطار الدراسات السامية فهو يعتقد أن لفظة: "السامية" لفظة محدثة في تاريخ العلم. وهي لفظة اشتقت من اسم أحد أبناء نوح عليه السلام وهو سام. وأصبحت في القرن الثامن عشر تشير إلى مجموعة من اللغات، وتعتبر اللغتان العربية والعبرية أفضل لغتين في المجموعة لبقائهما مستخدمتين إلى الآن. ويظن أنه يوجد مصطلح آخر يعتمد على الجغرافيا وهو "اللغات الآسيوية الغربية" أو "السورية العربية". ولكنه يفضل استخدام مصطلح "السامية". (انظر: كتابه: *The Early Alphabet*، ص. ٢٠٤-٢٠٥). وهو في هذا المجال يبرز كعالم متخصص في الميدان اللغوي وتبلغ به المهارة أنه يعقد المقارنات المتعددة بين أشكال الحروف وتطوراتها في اللغات السامية، وتتبع أشكالها في اللغة الواحدة أيضا. (انظر: كتابه: *The Early Alphabet*، ص. ٢٤٨-٢٥٣). وفي كثير من بحوثه اللغوية يحاول الربط بين كل اللغات السامية على أساس أنها تنتمي لعائلة واحدة متشابهة ومتداخلة. وتركزت كثير من بحوثه على موضوعين مهمين، هما: أوجاريت:

أنشج هيلي العديد من البحوث والمؤلفات والكتب في هذا الميدان، بلغت أكثر من ٢٣ دراسة وبحث، وتنقسم إلى موضوعات متعددة، ويندرج تحتها عدد من البحوث، ومن أمثلتها:

(١) أوجاريت تاريخيا:

- "أوجاريت":

"Ugarit", in A Dictionary of Biblical Interpretation (eds. R. J. Coggins, J. L. Houlden), 1990, pp. 714-716.

(٢) أوجاريت في العهد القديم:

- "أوجاريت والعهد القديم":

"Ugarit and the Bible", Proceedings of the International Symposium on Ugarit and the Bible, 1992 (Ugaritisch-Biblische Literatur 11) [edited with G. J. Brooke and A. H. W. Curtis], Ugarit-Verlag, Münster, 1994 (470 pp.)

(٣) الناحية السياسية:

١- "ملكوك: ملكم: أنوناكي" Ugarit-: "Malku: mlkm: Anunnaki", Forschungen ٧ (١٩٧٥), ٢٣٥-٢٣٨.

٢- "الأعمال غير الأخلاقية والفسوق لدى الملك في أوجاريت والمزامير": "The Immortality of the King: Ugarit and the Psalms", Orientalia, ٥٣ (١٩٨٤), pp. ٢٤٥-٢٥٤

(٤) الناحية الدينية:

١- "صفات العالم السفلي للإله داجان": "The Underworld Character of the God Dagan", Journal of Northwest Semitic Languages, ٥ (١٩٧٦), ٤٣-٥١.

٢- "المعبود الشمس والعالم السفلي في بلاد الرافدين وأوجاريت", "The Sun Deity and the underworld: Mesopotamia and Ugarit", in Death in Mesopotamia (ed. B. Alster), ١٩٨٠, pp. ٢٣٩-٢٤٢.

٣- "مجمع الآلهة الأوجاريتية: ملاحظات وتعليقات": "The Ugaritic 'Pantheon': Further Notes", Studi Epigrafici e Linguistici, ٥ (١٩٨٨), pp. ١٠٥-١١٠.

واهتمامه بالديانة الأوجاريتية لا ينبع من كونها لها صلة بالعهد القديم أو أنها تلقي الضوء على العهد القديم بل هو اهتمام نابع من رغبته العلمية ورغبته في البحث والدراسة.^{١٦}

١- "اللغة الأوجاريتية": [main author, with P. C. Craigie], The Anchor Bible Dictionary (ed. D. N. Freedman), ١٩٩٢, IV, pp. ٢٢٦-٩.

٢- "الأوجاريتية والعربية": "Ugaritic and Arabic: A Review", in Ugarit: ein ostmediterranes Kulturzentrum im Alten Orient. Ergebnisse und Perspektiven der Forschung I. Ugarit und seine altorientalische Umwelt, (ed.. M. Dietrich, O. Loretz), ١٩٩٥, pp. ٧٥-٨٥.

(٦) علاقات أوجاريت بالخارج:

١- "أوجاريت وشبه الجزيرة العربية": "Ugarit and Arabia: A Balance Sheet", PSAS, ٢١ (١٩٩١), pp. ٦٩-٧٨.

٢- "بين بحر إيجه والشرق الأدنى: أوجاريت كمحطة تواصل": "Between the Aegean and the Near East — Ugarit as Point of Contact", in 'Schnittpunkt' Ugarit, (eds. M. Kropp), Mainz, ١٩٩٩, pp. ٤٧-٥٧.

٣- "أكثر من فاصل حدي: أوجاريت في إطارها الشرقي للبحر المتوسط": "More than Marginal: Ugarit in its Eastern Mediterranean Setting" in Semitic Studies in honour of E. Ullendorff, [ed. G. Khan], Leiden ٢٠٠٥, pp. ١٨١-٨٨.

وهذا التنوع في الموضوعات يدل على تمكن هيلي من مجال تخصصه، وتعمقه في دراسة أوجاريت من جوانبها التاريخية والثقافية واللغوية والدينية وعلاقتها الخارجية.

الأنباط:

نال التاريخ النبطي واللغة النبطية حيزًا كبيرًا من اهتمامات أ.د. هيلي الذي كتب في هذا المجال عددا وافرا من البحوث والدراسات والمؤلفات التي سجل فيها آراءه وأفكاره الدالة على عمق في التفكير وسعة في الاطلاع وموضوعية في النقاش. وتوزع مؤلفاته وكتاباته إلى الموضوعات التالية:

تاريخ الأنباط:

– "هل كان الأنباط عربا": ١ Aram "Were the Nabataeans Arabs?", pp. ٣٨-٤٤. (١٩٨٩).

الديانة النبطية:

١- كتاب: ديانة الأنباط: نظرة شاملة: The Religion of the Nabataeans: a Conspectus, Leiden, ٢٠٠١ (xvi + ٢٤٢ pp. + plates).

٢- "الديانة النبطية": ٢ L. Jones (ed.), "Nabatean Religion", in Encyclopedia of Religion (٢nd ed.), Detroit, New York etc., ٢٠٠٥, vol. ٩, pp. ٦٣٨٥-٩٠.

الأنباط ومدائن صالح:

١- كتاب: نقوش المقابر النبطية في مدائن صالح: The Nabataean Tomb Inscriptions of Mada'in Salih, (Journal of Semitic Studies Suppl. ١), Oxford, ١٩٩٣ (xiv + ٢٩٨ pp. + maps and plates + ٥٥ pp. in Arabic).

٢- "تقرير حول الآثار الكتابية في مدائن صالح": ٢ "Report on Epigraphic Work at Madain Salih", New Arabian Studies ١ (١٩٩٤), pp. ٢٢٨-٣٠.

٣- "الأنباط ومدائن صالح": ٣ "The Nabataeans and Madain Salih", Atlal ١٠ (١٩٩٠), pp. ١٠٨-١١٦, Arabic: ١٣٥-١٤٤, plates pp. ١٠٧-

١٠٩.

اللغة والكتابة النبطية والخط النبطي:

١- "مساهمة الأنباط في تطوير الخط العربي": "The Nabataean Contribution to the Development of the Arabic Script", *Aram* ٢ (١٩٩٠), pp. ٩٣-٩٨.

٢- "من النبطية إلى العربية: الخط ونظور الكتابة عند العرب قبل الإسلام": "Nabataean to Arabic: Calligraphy and script development among the pre-Islamic Arabs", *Manuscripts of the Middle East* ٥ (١٩٩٣), pp. ٤١-٥٢.

٣- "النبطية العربية": ١٧ nab. Jaussen-Savignac and ١٨", in *Studies on Arabia in honour of Professor G. Rex Smith*, [eds. J. F. Healey, V. Porter], Oxford, ٢٠٠٢, pp. ٨١-٩٠.

القانون النبطي:

١- "مصادر دراسة القانون النبطي": "Sources for the Study of Nabataean Law", *New Arabian Studies* ١ (١٩٩٤), pp. ٢٠٣-١٤.

٢- "بردية قانونية من كهف الرسائل ذات أهمية في حقل الدراسات النبطية": "The Significance for Nabataean Studies of the Legal Papyri from the Cave of Letters", to appear in the proceedings of the ٢nd Conference on Nabataean Studies held in Petra, October ٢٠٠٢ (ed. Kh. 'Amr).

وكنظرة فاحصة لمنهج هيلي في تتبعه لتاريخ وحضارة الأنباط نلاحظ عدة أمور:
(١) استشهاد بالقرآن الكريم في عدة مواضع، مثل ما هو مذكور في بحثه: "الأنباط ومدائن صالح" المنشور في حولية أطلال، ص. ١٣٥.

(٢) اعتماده على الآثار واقتداره على استخدام الدليل الآثاري كدليل مدعم للفكرة التاريخية، على الرغم من أنه ليس متخصصا في الآثار. ومثال على ذلك ما أشار إليه في بحثه: "الأنباط ومدائن صالح" (ص. ١٣٥-١٣٦، ١٣٨-١٣٩، ١٤٠-١٤١)

(٣) تأكيده دائما على أن الأنباط عرب لغة وديانة وأسماء شخصية على الرغم من أنهم قد استخدموا اللغة الآرامية في حياتهم الرسمية وكتابتهم الدينية. مع أنه يرى أن العرب كانوا موجودين في المنطقة قبل ظهور الأنباط. (بحث: "الأنباط ومدائن صالح" (ص. ١٣٦؛ "Were the Nabataeans Arabs?" ص. ٤٠-٤٢؛ The Religion of the Nabataeans، ص. ٢٥-٢٧). ويخلص إلى نتيجة مهمة وهي أن الأنباط قد تكلموا اللغة العربية وكتبوها بالآرامية لأنهم عرب أما الفرس فقد استخدموا الآرامية في المكاتب الرسمية والنقوش ولكنهم ليسوا آراميين أو عربا. ("Were the Nabataeans Arabs?" ص. ٤٣).

(٤) اعتماده على المقارنة بين الموضوعات بين ما أنتجه الأنباط وبين ما خلفه غيرهم في مناطق أخرى من الشرق الأدنى القديم سواء كانت في ميدان النقوش أم في مجال الآثار. (بحث: "الأنباط ومدائن صالح"، ص. ١٣٧، ١٣٩؛ The Nabataean Tomb Inscriptions of Mada'in Salih، ص. ٦٨ فما بعدها). وفي كتاب نقوش المقابر يتبع بطريقة علمية الحروف والكلمات النبطية ويقارنها بأخرى في بقية اللغات السامية.

(٥) تشجيعه على إجراء مزيد من التقيب والمسح الآثاري على اعتبار أن الآثار من أكبر الدلائل على الحضارة. (بحث: "الأنباط ومدائن صالح"، ص. ١٤١، ١٤٢).

(٦) تمكّنه من استنباط الأحكام من خلال النقوش بما تحويه من معلومات حول جوانب الحياة المختلفة في المجتمع النبطي والوضع القانوني بما فيه من شراء وبيع وتملك وميراث، ومكانة المرأة في المجتمع ودورها في الحياة. (بحث: "الأنباط ومدائن صالح"، ص. ١٤٣). وهو أيضا لا يكتفي بإيراد النقش ودراسته لغويا بل يعلّق عليه تاريخيا وعرقيا، ويستخلص منه دلالة التاريخية، وهذا ما فعله في كتابه نقوش المقابر. وقد أثنى على طريقته هذه د. عبد الله حسن مصري في تقديمه للكتاب المذكور. (ص. ٤).

(٦) نالت الديانة النبطية حيّزا كبيرا من اهتمامات هيلي، واستعرض فيها كمّا هائلا من المعلومات عن المعبودات والمعابد والنقوش الدينية والطقوس والمصطلحات الدينية في اللغة النبطية. ووضع كتابا مستقلا عن الديانة النبطية. وربما لتشتته الدينية دور وتأثير في هذا التوجه. (بحث:

"الأنباط ومدائن صالح"، (ص. ١٤٣، ١٤٤. وانظر كتابه: The Religion of the Nabataeans)

(٧) تقديمه فكرة واضحة وجريئة عن تاريخ الأنباط، وتوصله إلى نتائج حاسمة في ظنه مثل قوله: عن مدائن صالح أنها أنشئت في أوائل الألف ق.م. وقوله: أن مدائن صالح قد تنامت أهميتها خلال عهد الحارث الرابع (٩ ق.م. - ٤٠ م.)، وقوله: تبين النقوش الرومانية أنه كان هناك وجود روماني حتى في جنوب مدائن صالح. وقوله: من المدهش أن موقع مدائن صالح كان معروفا منذ عهد بعيد بنقوشه التي هي أكثر أهمية من النقوش الموجودة في البتراء. (بحث: "الأنباط ومدائن صالح"، ص. ١٤٢). وقوله عن النقش المعروف بنقش رقوقش ويرقم بـ جوسين-سافيناك ١٧ المكتشف في مدائن صالح أنه أول نقش عربي مؤرخ قبل نقش النمارة إذ يعود زمنيا إلى عام ٢٦٨ م. ودلل على ذلك بوجود بعض الاصطلاحات الخاصة باللغة العربية كـ "أل" التعريف، و حرف "ذا" و "هوا".

(انظر بحثه: " Nabataeo-Arabic: Jaussen-Savignac nab. ١٧ and ١٨"، ص. ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٥). وهو يؤكد في أكثر من موضع أن الخط العربي تطور من الخط النبطي ويستدل على ذلك بالنقوش والكتابات القديمة وأشكال الحروف والألفاظ والمعاني. (انظر بحثه: "The Nabataean Contribution to the Development of the Arabic Script"، ص. ٩٤-٩٧ و كتابه: The Nabataean Tomb

Inscriptions of Mada'in Salih، ص. ٥٩-٦٣).

(٨) استشهاده باللغة العربية كلغة وكلمات وحروف على اعتبار أنها أحد أهم اللغات السامية.

(The Religion of the Nabataeans، ص. ٨٨، ٩١، ٩٢).

من الأمور الملاحظة على الإنتاج العلمي لهيلي:

بلا شك أن عددا من العلماء والمتخصصين والمستشرقين قد خالفوا أستاذنا الجليل في آرائه ولم يتفقوا معه ولكنه لم يعأ بهذه الاختلافات التي غالبا ما كانت تصدر من أولئك المتخصصين في ميدان الدراسات التوراتية (Biblical Studies) والذين يمتلكون وجهة نظر مغايرة لهيلي حول الشرق الأوسط. وهؤلاء العلماء يركزون فقط على ما له علاقة بالعهد القديم بغض النظر عن شعوب الشرق الأوسط التي ليس لها علاقة بالكتاب المقدس وخاصة فيما يتعلق بفلسطين. وهو يستهجن رأي كل من ينكر وجود الأنباط في الفترة التي تبتع الميلاد مجرد أنهم لم يذكروا في العهد الجديد.^{١٧}

يعترف هيلي بأن عددا من المستشرقين قد ارتبطوا بدوائر الاحتلال والقوى الكبرى ولكن لا يرى ذلك حكما عاما. وهو ينتقد كل من ينظر بعين واحدة لدور الاستشراق في ميادين العلم والبحث والدراسة ومن هؤلاء إدوارد سعيد الذي يعتقد أنه بالغ كثيرا في هذه النقطة بالذات. ويلفت هيلي الأنظار إلى أن وجود عدد كبير من المستشرقين الألمان والروس الذين لم تكن لدولهم أدوارا احتلالية واستعمارية بارزة في بلاد الشرق. ويعتقد هيلي أن المشكلة هي النظرة السلبية لمجموعة من المستشرقين للقرآن الكريم والإسلام. وكان هؤلاء المستشرقون يركزون على بعض العناصر الدينية في القرآن الكريم والتي يرون أنها مستعارة أو مأخوذة من اليهودية والنصرانية.^{١٨}

ولاحظت من خلال أحاديثي مع هيلي ومراسلاتي معه أنه يحاول قدر الإمكان الابتعاد عن مصادر الخلاف بين الديانات الثلاث وتجنب كل ما يثير فتنة أو يحدث مشكلة. ولذا فهو يحترم الديانات ويحاول أن يقيم علاقات حسنة مع منتسبيها. ولهذا لما يأتي أحد لمناقشته في المسائل الخلافية الدينية الحادة يحاول الابتعاد عن هذا الموضوع.^{١٩} ويلاحظ أنه في أحد بحوثه لما تحدث عن النصارى في الأرض الإسلامية عرض الموضوع بصيغة إيجابية جدا وأثنى على التعامل الإسلامي مع النصارى.^{٢٠}

(i) أن كثيرا من مؤلفاته تتناول الجانب الديني، وبالذات فيما يتعلق بالمعبودات والمعابد والمقابر، وأحيانا يركز على ما له علاقة بالعهد القديم تاريخيا ولغويا ودينيا. وكأن هذا التوجه له صلة بتشتته الدينية على الرغم من أنه غير توجهه من التوجه الكنسي البحث كراهب إلى باحث في الدراسات السامية. ولكن الركيزة الأولى بقيت واضحة في إنتاجه العلمي مع صبغها بالطابع العلمي والتاريخي واللغوي.

(ii) أن كثيرا من بحوثه ومؤلفاته تركز على النقوش والكتابات القديمة وهو أمر لا أعتقد أنه يستطيع الفكاه منه.

(iii) قلة الطابع التاريخي في إنتاجه العلمي مع التأكيد أنه دائما يستشهد بالأحداث التاريخية في بحوثه اللغوية. ولكن النهج التاريخي يختلف في تعاطيه عن النهج اللغوي.

(iv) ضعف معرفته باللغة العربية مقارنة بتمكّنه من اللغات السامية الأخرى مع أنه كثير ما يستشهد بالألفاظ والمصطلحات العربية.

(v) في البداية كانت بداية هيلي علاقاته بالعالم العربي بداية ضعيفة لم تتقو إلا في السنوات الأخيرة، ويبدو أن تغييره الفكري بدأ يتحسن مع مرور الوقت.

(vi) أثرت علاقات هيلي الشخصية على تكوين علاقات بالمنطقة وفي اعتقادي لولا هذه العلاقات لبقي هيلي في عزلة نوعا ما.

(vii) اعتماده أحيانا في بعض تفسيراته على رؤى آخرين ومثال على ذلك ما أشار إليه من أن المعبود هبل المشهور عند العرب في الجاهلية كان بمثابة الله عز وجل. (انظر: **The Religion of the Nabataeans**, ص. ١٣٠-١٣١) وهذا تفسير غير صحيح فالنصوص القرآنية وأحداث السيرة تؤكد أن قريشا وبقية العرب كانوا يعبدون الأصنام ليس لكونها تعادل الله في خلقه وربوبيته بل لكونها وسيلة مقربة لله تعالى مع إقرارهم الكامل بوجود الله سبحانه.

(viii) لما تحدث هيلي عن قضية التوحيد عن الأنباط وعرب الجاهلية نجده يتحدث عنها على استحياء، وربط ذلك بوجود نوع من التأثيرات اليهودية والنصرانية. وهي نظرة لم يتفرد هو بها بل سبقه العديد من الغربيين.^{٢١} (انظر كتابه: **The Religion of the Nabataeans**, ص. ١٨٩-١٩١. وكذلك في بحثه: **"Towards the Fall of Idols: Emergent Monotheism in the Pre-Islamic Near East"**) مع أن قضية التوحيد كانت واضحة ومعروفة عند عرب الجاهلية، وهم يقرّون أنها منذ عهد إبراهيم عليه السلام، ولم تكن مسألة طارئة.

(ix) لقد كانت بداية تكوين شخصية هيلي بداية دينية إذ كان يعد في مدرسة اللاهوت ليصبح بعد ذلك قسّا إلا أنه غيّر توجهه بعد دخوله الجامعة وتخصص في الدراسات السامية لغة وتاريخا وحضارة وهذا التقليد لم يتفرد به هيلي وحده إذ سبقه عدد من العلماء الأوربيين ومنهم عدد من البريطانيين.^{٢٢}

الخلاصة:

لقد كان جون هيلي يحمل رسالة قيمة طوال الخمسة والعشرين عاما الماضية، وهي رسالة تحمل في طياتها تأسيس منهجية حديثة لدراسة اللغات القديمة والتاريخ القديم في جامعات الشرق الأوسط. وهو في الوقت نفسه يعلم أن بعضا من جامعات العربية لا تحتاج إلى توجيه مثل هذا لأنها تطبّقه في مناهجها وبرامجها مثل الجامعات العراقية على الرغم من أنه في الوقت الحاضر تعرّضت الجامعات للتخريب والتدمير. وهيلي يرى نفسه أنه قام بتحقيق جزءا كبيرا من أحلامه، ويتمثل هذا التحقق في تخرّج عدد من طلبته وحصولهم على الدكتوراه تحت إشرافه. وهذا يشعره بالفخر والاعتزاز وهو يرى هؤلاء الطلبة يتبوءون مراكز أكاديمية وإدارية مهمة في جامعات في كلّ من الإمارات والسعودية والأردن وسوريا وتركيا. هذا ما يراه هو أكبر تأثير له في العالم العربي.

ومن أمثلة هذا التأثير أنه ذكر في تقديمه لأحد كتيبي قوله: أن الكتابات التاريخية عن منطقة الخليج العربي: تضيف معلومات قيمة لدور منطقة الخليج عبر العصور ونشرها. ومثل هذه الدراسات والبحوث تقدّم دليلاً واضحاً للعلماء الغربيين بأن لمنطقة الخليج العربي تاريخاً طويلاً وحضارة عريقة تعود أزمانها إلى فترات طويلة قبل اكتشاف النفط. وفي الوقت نفسه تذكّر مواطني دول الخليج بهذه الحقيقة. وتشجّعهم وتجعلهم يفتخرون بترائهم الغني العظيم كما تثير في نفوسهم الحماسة والاندفاع.^{٢٣}

وأستطيع أن أؤكد أن أ.د. جون هيلي من العلماء المتميزين في تاريخ ولغات الشرق الأدنى مع حب لهذه المنطقة وإعجاب بها وبأهلها وتعاطف معهم في كل ما يصيبهم من ويلات ومصائب. وبلغت درجة تعاطفه معهم أنهم لم يقيم بزيارة لفلسطين المحتلة على الرغم من الدعوات المتكررة التي وجهها له العديد من الأكاديميين الإسرائيليين لأنه يخشى أن توظّف زيارته لتحقيق أهداف سياسية.^{٢٤} الهوامش:

١ لقد تناول موضوع الاستشراق كتاب عديدون، وما أوردناه أعلاه من آراء يمكن الرجوع إليها في المراجع التالية: إدوارد سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة: صبحي حديدي، عمان، ١٩٩٦. وهو كتاب نقدي يناقش فيه المؤلف أفكار ومبادئ بعض المستشرقين الغربيين وفي الكتاب مقدمة للمترجم. وكتاب: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، وهو عبارة عن مجموعة من البحوث والدراسات لكل من محمد أركون ومكسيم رودنسون وآلان روسيون وبرنارد لويس وفرانيسكة غابرييلي وكلود كاهين، ترجمة وإعداد: هاشم صالح، بيروت/لندن. ويضم الكتاب أيضاً مقدمة للمترجم. انظر كذلك: أحمد شلبي، الاستشراق: تاريخه وأهدافه، شبهات المستشرقين ضد الإسلام مناقشتها وردّها، القاهرة، ١٩٩٦، ص. ٩-٣١. وفي بقية صفحات الكتاب يفند المؤلف شبهات المستشرقين حول الإسلام وتاريخه؛ عبد العظيم المطعني، افتراءات المستشرقين على الإسلام: عرض ونقد، القاهرة، ١٩٩٢، أغلب صفحات الكتاب؛ محسن الموسوي، الاستشراق في الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص. ٢٧ فما بعدها؛ محمد الشرقاوي، الاستشراق: دراسة تحليلية تفويجية، القاهرة، ١٩٩٣، أغلب صفحات الكتاب. انظر كذلك: شوقي أبو خليل، الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين، بيروت/دمشق، ١٩٩٥، ص. ٥-٦، ٩-١٤. وهذا الكتاب يبحث كيف أسقط المستشرقون والمبشرون عدداً من التهم والافتراءات على الإسلام والنبي ﷺ. وبسذل المؤلف جهداً في تفنيد هذه الاتهامات والافتراءات؛ علي جريشة، الاتجاهات الفكرية المعاصرة،

القاهرة، ١٩٨٦، ١٧-٢٣. انظر كذلك: ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي: الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، بيروت/طرابلس الغرب، ٢٠٠٢، ج. ١، ص. ٣٧. فما بعدها؛ ضيف الله بن يحيى الزهراني، "جهود المستشرق دي حُوَيْة في الاهتمام بالعلوم الاجتماعية عند المسلمين"، مجلة العصور، مج. ٥، ج. ٢، (يوليو ١٩٩٠)، ص. ٣٦٩-٣٧٠؛ علي النملة، الاستشراق والدراسات الإسلامية: مصادر الاستشراق والمستشرقين ومصدريتهم، الرياض، ١٩٩٨، ص. ٢٠٥-٢٣٦؛ عماد الدين خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، الدوحة، ١٩٨٩، ص. ٥. فما بعدها؛ فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، عُمان، ١٩٩٨، ص. ٩-١٩، ٢٧-٤٣؛ محمود محمد شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، عُمان، ١٩٩٢، ص. ٥٩-٦٦، ١٢٥-١٢٨؛ نجيب العقيقي، المستشرقون، القاهرة، ١٩٨٠، ج. ٢، ص. ٥٩٨-٦٢٥؛ يوسف العظم، تاريخنا بين تزوير الأعداء وغفلة الأبناء، بيروت/دمشق، ١٩٩٨، ص. ٤٣-٦٦. ومن الكتب المهمة كتاب اقراءات المستشرقين على الإسلام والرد عليها للدكتور يحيى مراد، بيروت، ٢٠٠٤. وهو كتاب شامل يبدأ بتعريف الاستشراق لغة واصطلاحاً ويتبع آراء المستشرقين أنفسهم في تعريفه وكذلك تعريفات الكتاب العرب ويجمع بين الآراء ويرجح بينها. ويستعرض كذلك دوافع الاستشراق ويعتبرها سبعة دوافع: نفسية وتاريخية وأيديولوجية ودينية واستعمارية وعلمية. ويستعرض الخلفية التاريخية للاستشراق ونشوته، ويناقش كذلك العلاقة بين الاستشراق والاستعمار والتنصير والصهيونية. ويتحدث عن مظاهر عناية المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي. ثم يتناول بالتفصيل عدداً من القضايا التي اتخذ منها المستشرقون مواقف عديدة وهي القرآن والسنة والسيرة النبوية والنسب والفقه التشريعي الإسلامي والنظام السياسي في الإسلام والحياة الاجتماعية الإسلامية والاقتصاد الإسلامي والحضارة الإسلامية في الأندلس. انظر كذلك: موقع مركز المدينة المنورة

لدراسات وبحوث الاستشراق على الشبكة المعلوماتية: <http://mazen-center.am.com>

٢. لمزيد من التفاصيل حول استمرارية ظاهرة الاستشراق، انظر المرجع والمصادر المذكورة في الحاشية السابقة، إضافة إلى: إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون وتاريخ صلتهم بالعربية بحث في الجذور التاريخية للظاهرة الاستشراقية، عُمان، ١٩٩٢، ص. ٥٦. فما بعدها.

٣. انظر: إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون والمناهج اللغوية، عُمان، ١٩٩٢، ص. ٤٦-٤٧؛ جورج زيدان، العرب قبل الإسلام، بيروت، ب.ت.، ص. ٢٨-٢٩؛ يحيى مراد، اقراءات المستشرقين، ص. ١٢٣-١٢٤.

٤. أرنست بابلون، الآثار الشرقية، ترجمة: مارون عيسى الخوري، طرابلس، ١٩٨٧، ص. ج-ن؛ سلطان محسن، آثار الوطن العربي القديم: الآثار الشرقية، دمشق، ١٩٨٨/١٩٨٩، ص. ٦-٢٢؛ جواد علي،

المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٩٣؛ ج. ١، ص. ١٢٣ فما بعدها؛ جورجى زيدان، المرجع السابق، ص. ٢٩-٣٠؛ عيسى سلمان، "التعاون مع البعثات الأجنبية على الصعيد العربي"، في كتاب: حركة التنقيب عن الآثار في الوطن العربي، (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، تونس، ١٩٨٩، ص. ٨٢-٨٨؛ ج. كونينو، الحضارة الفينيقية، ترجمة: محمد شعيرة، القاهرة، ١٩٩٧، ص. ٨-٣٠؛ نجيب العقيلي، المرجع السابق ج. ٢، ص. ٣٣٩-٣٤٨، ٣٤٩. وتوجد مجموعة من الموسوعات العلمية التي احتوت مقالات وبحوثاً عن التاريخ القديم والآثار في بلاد الشرق الأدنى القديم، مثل: **The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East, ed. in Chief: E. M. Meyers, Oxford, ١٩٩٧, ٥ vols.**

٥ جواد علي، المرجع السابق، ج. ١، ص. ١٢٣-١٢٤. انظر كذلك: جورجى زيدان، المرجع السابق، ص. ٣٠-٣٢؛ نجيب العقيلي، المرجع السابق، ج. ٢، ص. ٣٣٩.

٦ نجيب العقيلي، المرجع السابق، ج. ٢، ص. ٣٤٩.

٧ انظر على سبيل المثال، اللقاء مع المستشرق الألمانية جوديث لابس في مجلة أحوال، ع. ٩٦، ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٥، ص. ٣٢-٣٤؛

Healey, J.F. (ed.), Studies on Arabia in Honour of Prof. G. Rex Smith, (Journal of Semitic Studies Suppl. 14), Oxford, 2002, pp. vii-ix

٨ انظر العليق الجميل للعالم والمؤرخ جواد علي في هذا الموضوع: المرجع السابق، ج. ١، ص. ٨٣، ١٣٨-١٣٩.

٩ انظر على سبيل المثال: باتريشا كرونه و مايكل كوك، الهاجريون، ترجمة: نبيل قياض، دمشق، ٢٠٠٣، أغلب صفحات الكتاب. وقد بذل المترجم جهداً مشكوراً في التوضيح والشرح والبيان للعديد من الأفكار الواردة في الكتاب؛

Crone, P., Meccan Trade and the Rise of Islam, Oxford, 1987, passim.

١٠ اهتم اليهود كثيراً بالآثار واللغات السامية القديمة وبذلوا جهوداً كبيرة في الاعتماد على التاريخ القديم والآثار لتثبيت وجهة نظرهم العنصرية. انظر مثلاً: **Rohl, D. M., Pharaohs and Kings: A Biblical Quest, New York, ١٩٩٥, passim.**

التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة: صالح علي سوداح، بيروت، ١٩٩٥، ص. ٩ فما بعدها.

١١ انظر على سبيل المثال: إسماعيل أحمد عمارة، المستشرقون والمناهج اللغوية، ص. ٤٣-٤٤؛ المؤلف نفسه، نشأة الدراسات اللغوية العربية، عمان، ٢٠٠١، ص. ٢٩-٣٠؛ توماس ل. طومسون، المرجع

السابق، ص. ٢٧-٩٢؛ سلطان محسن، المرجع السابق، ص. ٨؛ كاثلين م. كنيون، الكتاب المقدس والمكتشفات الأثرية الحديثة، ترجمة: شوقي شعث وسليم زيد، دمشق، ١٩٩٠، ص. ٧ فما بعدها؛

Pritchard, J. B. (ed.), *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, Princeton, 1969.

١٢ ساسي سالم الحاج، المرجع السابق، ج. ١، ص. ١٢٣-١٢٩؛ نجيب العقيلي، المرجع السابق، ج. ٢، ص. ٧-١٢، ٢٢ فما بعدها.

١٣ أشار موقع المدينة المنورة لبحوث ودراسات الاستشراق إلى التالي: "ولا شك أن بعض أبناء العرب والمسلمين يتأثرون بأساتذهم فكرياً وأخلاقياً وسلوكياً، ولذلك نجد التركيز في التراجم الإسلامية السؤال عن الشيوخ، ولذلك من المهم معرفة شيوخ العلماء المعاصرين من أبناء الأمة الإسلامية الذين تعلموا على المستشرقين. ومهما كانت قوة العقيدة والإيمان لدى معظم الطلاب العرب والمسلمين فإن بعضهم يتأثر بشيوخه من المستشرقين وبخاصة أن بعض هؤلاء قد بلغوا درجة عالية من العلم والخبرة ومعرفة نفسية الطلاب العرب والمسلمين." وأرى أن هذا حكم عام قاسٍ ربما تم تجاوزه كثيراً في هذا الزمن.

<http://mazen-center.am.com/istichrak/maaloumat/WASAIL.HTM>

١٤ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٣ يناير ٢٠٠٦.

١٥ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٣ يناير ٢٠٠٦.

١٦ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٥.

١٧ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٥.

١٨ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٥.

١٩ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٥.

٢٠ "Christians in a Muslim Land", Ur ٤ (١٩٧٩), pp. ١٨-٢٢.

٢١ انظر مثلاً: إسماعيل أحمد عمارة، بحوث في الاستشراق واللغة، عُمان، ١٩٩٦، ص. ٣٩٥-٣٩٩؛

شوقي أبو خليل، كارل بروكلمان في الميزان، بيروت/دمشق، ١٩٨٧، ص. ٣٤ فما بعدها.

٢٢ حول موضوع العلماء والمستشرقين القساوسة والرهبان، انظر مثلاً: عبد اللطيف الطياوي، ترجمة

وتقديم: قاسم السامرائي، المستشرقون الناطقون بالإنجليزية: دراسة نقدية، (جامعة الإمام محمد بن سعود)،

الرياض، ١٩٩١، ص. ٨٨، ٩٨. انظر كذلك موقع مركز المدينة المنورة:

<http://mazen-center.am.com/istichrak/maaloumat/WASAIL.HTM>

-
- ٢٣ منطقة الخليج العربي من القرن الثالث ق.م. إلى القرنين الأول والثاني الميلاديين، مع التركيز على النشاطات التجارية بين تدمر وميسان ومنطقة الخليج، (المجمع الثقافي)، أبو ظبي ٢٠٠٠، ص: ١٩.
- ٢٤ رسالة شخصية من أ.د. جون هيلي عبر البريد الإلكتروني بتاريخ: ٣ يناير ٢٠٠٦.

